

قصة الاساطيل

الاسلامية

لمحمد عبدالقني حسن

وقع لي أخيراً كتاب في الانجليزية عنوانه ه البحارة الانجليز في القرن السادس عشر
لؤلؤه جيمس فروود أستاذ التاريخ بجامعة أكسفورد (English Seamen in the
By J.A. Froude : (sixteenth century) فذكرني بالاساطيل الاسلامية يوم أن
كانت تعرف عليها راية الاسلام فتمخز الباب وتلوا الاتجاج لنشر تجارة أو لغزو في
سبيل الله أو لتفتح بلاد جديدة

وبالطبع لم تحملي الذكريات البعيدة السعيدة على عقد موازنة أو عمل مقارنة ولكنها
حملني على أن أرجع الى أسفار التاريخ الاسلامي وأسمات كتبه أستخرج منها الاحداث
وأنزع منها الوقائع البحرية الاسلامية فأصادفها أممي كثيرة وأجدتها في سهولة ويسر
فلا أتكلف لها عناء في البحث أو تنقيباً في بطون الكتب . ولكنها أجدتها واضحة المعالم
مرفوعة الاعلام فاود أن أعرضها على القراء لعلمها تذكركم بحمد درس ولكن الآمال معقدة
على مردته ، وماضٍ ذهب ولكن النفوس متطلعة الى رجيمته

وقصة الاساطيل الاسلامية قصة شائقة ممتعة يذكرها المؤرخون المسلمون على سبيل
التدوين ، ويعرفها المنتصفون من غير المسلمين فيسجلونها فيما يسجلون من مفاخر العرب .
وينظر اليها بعض ذوي الاغراض منهم بالنظر الشرر ، فيقرءون حاجباً من حاجب ويحاولون
انكار فضلها وهو باد لكل عين بصيرة

والمنتصفون من الغربيين كثيرون يحمدون محمد الله لانهم يشهدون الحق وينفقون وجه العلم فلا
نعيمهم غاية ، ولا يعلمس على قلوبهم تحيز ، ولا يحتم على سمعهم ولا على أبعارهم حوى جائر
وغرض مائل

وقد كان جحود الغرب للشرق وانكار بعض المتعصبين منه فضائله واجعباً الى عوائل

شينة وأخرى سياسية . ولا شك ان الحروب كانت أهم أسباب الجفوة واتساع الشقة ولكن النهضة الاوربية قللت من هذا الجفاء البغيض فقد استقامت على نفسها بحضارة العرب . ولهذا لم يجد النصفون من الوفاء لها أن يرموها أو ينضوا من شأنها . إلا أن نفرًا منهم ظل التعصب بأكل قلوبهم والغرض يعني عيونهم ، فلم يستطيعوا أن ينكروا مدينة الاسلام جملة لانهم لا يقدرون على ذلك ، ولكنهم هربوا من أمرها ، وتقصوا من قدرها ، ورموها بأنها مدينة أولية وحضارة بدائية . وظهر ذلك فيما كتبوا وألغوا . ومن المؤسف أن يكون جون كارنوك من هؤلاء المغرضين الذين رموا الحضارة الاسلامية بالجمل بأساليب الملاحه وطرق البجار وفن الاساطيل

الآن انما مما يثير العري أن يجد أسماء كثيرة أنصفت العرب وعرضت حضارتهم أحسن عرض وقدوتها أجل تقدير

ومن هؤلاء سيديو المؤرخ وجوستاف لوبون وأرنست باكر وجب ومرجوليرت ولاينبول ولاين وأرنولد وبريجز

ولقد كان جوستاف لوبون منصفاً الانصاف كله وصريحاً الصراحة كلم حينما ذكر في كتابه حضارة العرب « أن بعض مفكري أوربا يجدون من الغنضة بل من الدل أن يعترفوا بأن أوربا المسيحية مدينة للعرب بخروجها من ظلمات الجهل »

وكلمة أسطول ليست عربية الاصل ولكنها يونانية معربة ، ولا تعرف بالضبط الوقت الذي استعملت فيه تلك اللفظة ، ولا أول من استعملها ولكنها على كل حال لم تكن زمن الخلفاء الراشدين الذي استعملت فيه كلمة مراكب التي تساوي بالضبط كلمة أسطول . ويظهر أن اللفظة اليونانية دخلت العربية بعد اتصال العرب بالروم واستعملت في كتب المؤرخين المسلمين . وزاد استعمالها عند المتأخرين منهم . والقريزي يذكرها في مواضع كثيرة من كتابه

وعلى الرغم من ضخامة هذه الكلمة فقد استعملت في الشعر وخاصة عند ابن هاني، الأندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي وواصف أساطيله كما استعملها الشاعر الأدي

ومن العجب أن عمر بن الخطاب التابع العظيم لم يحب ركوب البحر ولم تشجع عليه بل على الضد من ذلك صرف المسلمين عنه . وكتابه الى معاوية يؤيد هذا ، فقد أقسم بالله الذي بعث محمداً بالحق لا يحمل فيه مسلماً أبداً . وذلك حينما اقترح معاوية وألح في الاقتراح على عمر بركوب البحر وغزو الروم في حمص

وعجيب جداً أن يكون هذا موقف عمر من البحر وهو الذي دوخ البلاد فتحاً وغزواً .
ولعله أراد أن يركز قوة المسلمين في البر حتى يتمكنوا من ركوب البحر
ويعد الخليفة عثمان بن عفان أول حاكم مسلم أنشأت في عهده صناعة الاساطيل العربية .
والفضل في ذلك لمعاوية بن أبي سفيان الذي لم ينش عن انطالية ركوب البحر ، والذي يعد
أول خائن ضمير البحار . وهنا نذكر اسم عبد الله بن قيس الفزاري الذي استعمل أميراً
على البحر ، ففزا أكثر من خمسين غزوة ما بين ثمانية وصائفة .

لم يكن للمرب أسطول قبل عهد عثمان ، فكيف أتيج لهم أن يذرعوا بحر الروم بهذه
السرعة الفائقة ؟ ومن أين لهم بصناعة الاساطيل ولم يكن لهم ما سابقه عهد . وليس في العالم
حينئذ مصانع كبرى تمد الدول بحاجتها من السفن كما تفعل المصانع اليوم . وليس من العقول
أن يدمر الروم بالسفن ولو بحجة استعمالها في التجارة . لأن العداء بين الاثنين مستحکم ،
وببلاد الروم تنهار بلداً أثر بلد . والمسلمون يعمنون فيهم الغارة ؟
والجواب عن ذلك سهل بسيط . فالارادة القوية لا تقف دونها أهوال . وقد انعقدت
ارادة المسلمين بالبحر ليحشدوا فيه متعاً للغزو ومضرباً للجوب . فكيف يعمهم من ذلك
جدائنه عهدهم بالصناعة ، وعدم رسوخ قدسهم في الملاحة ؟

وهنا تنجلي العبقرية العربية ، فيستحيل الاسكندرية ال دار عظيمة لصناعة السفن .
ويستخدم فيها العمال المصريين من حطقوا الصنعة على أيدي الروم . وتأخذ السفن العربية
أشكالها من سفن الروم التي استول عليها عمرو بن العاص في واقعة الاسكندرية . وتجيد
الأيدي العربية القلنطة وربط الالواح وإحكام الدر وأقامة الدقن وإمالة الشراع وهي
التي كانت بالامس القريب تنصب نظيام وتقيم الالواح وأضرب القباب وتشد الرحال وتحمزم
الأكوار وتمعدو المطايا وقد سالت الأباطح بأعناقها

وهذا الانتقال السريع من حال ال حال هو مرضع الاعجاب بأجدادنا العرب ، فانهم لم
يقسموا في الصحراء ، ولم ينظروا على أنفسهم في رمال الجزيرة ولم يقولوا : ارادتنا الطبيعية ان
تكون اهل المداء في مضارب البيداء بل قالوا تريد أن تكون اهل الالواح في غمرات اللد فكان
لهم ما أرادوا

ولطك تصوّر الاسكندرية ممي حينذاك وقد علا فيها طرق الارامل وقرع المطارق
وصوت النشايير وذن السامير وفي لحظة وجيزة من الزمن تخرج مصانع الاسكندرية
مائي سفينة وتنزل الى البحر لاول عهدهما به ، وعينها عبد الله بن ابي النمرح اميراً ، ثم
يخرج بها في غزوة اخرى فيلاقي الروم في الف ركب ، فأبلى المسلمون بلاء حسناً . واذا هم
في البحر كما هم في البر : شدة بأس وقوة مراس وصبراً على المنكارة . واذا النصر يلازمهم
في أول معركة بحرية وهي المعركة بوقعة « ذات الصواري » التي سميت بذلك لكثرة اجتماع
المرآكب فيها وعليها صواريخها المرفوعة

ويزداد شعور المسلمين بحاجتهم الى المرآكب في عهد بني امية ، وينشأ منهم جيل تهرس
بالبحار ومرن على ركوبها . فيميت عبد الملك بن مروان الى طامله على أفريقية حسان بن النعمان
بأمره بالبناء دار لصناعة الاساطيل في تونس على غرار ما حدث في مصر
ثم يأتي عبيد الله بن الجحّاب واليا على افريقية سنة ١٦٤ هـ فيوسع دار الصناعة التي
أنشأها حسان بتونس وينزوي صقلية سنة ١٢٢ هـ

ويظهر أن صناعة الاساطيل الاسلامية استقرت على شاطئ افريقية الشمالية مدة ازدهار
الحضارة العربية ولم يهتم خلفاء بني العباس بهذه الصناعة إلا حين نزل الروم دمياط من الديار
الضربية ، فقد كان المتوكل خليفة ، وعنه بن اسحق واليا على مصر . وكان الروم واقفين
للغرب بالرصاد . فانهزوا يوم الوقوف بمرقات سنة ٢٣٨ هـ وغزوا دمياط وقتلوا وسبوا من
المسلمين . ووصلوا الى قميص . فاهتم المتوكل العباسي بصناعة الاساطيل التي كانت قد أصابها
الركود زماناً

ويعد هذا أول اهتمام للبحرية العربية . فقد وضعت قوانين للبحارة ، ورتبت لهم
الارزاق ، وانتخب لهم القواد العارفين بالمحاربة ، ولم تمد البحرية الاسلامية مبدأنا لكل
نازل وحرفة لكل محترف . ولكنها صارت فناً يختار له المتمرسون من أهل التدربة ،
ويتحصن عن الجلاء الجبناء

وتهاقت الشبان على الاشتراك في البحرية وسعوا اليها بكل الوسائل حتى يكو نوا من رجالها
فقد كان من الشرف الاسمي أن ينسب المرء الى الاسطول الذي كان لرجاله مكانة وحرمة
وكانت الاسكندرية وتونس قاعدتين مهمتين من قواعد الاسطول الاسلامي . تخرج
منها السفن للغزو ، وتوقع يملوك الافرنج وتشن في ممالكهم كما يقول ابن خلدون

ولا ينسى فضل الاسكندرية في وقعة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ ، ولا في رد الروم من دمياط سنة ٢٣٨ هـ . كما لا ينسى فضل تونس في غزو صقلية . فمما كانت تخرج السفن من حين ال حين الى ان استقر فيها المسلمون سنة ٢١٢ هـ على يد أسد بن القرظ مؤمداً من قبل زيادة الله بن الأغب

ويروي انقرزي في خطه ان أساطيل الاسلام كانت كثيرة الهجوم على بلاد العدو . فاما كانت تدير من مصر ومن الشام ومن أفريقية ، وتلك اشارة على إنجازها . يدل على فضل الشام في الغزو البحري . فقد كانت « صور » هي المنفذ الحربي الاسلامي المواجه لبيزنطة . ويذكر اليعقوبي في جغرافيته (ان بها داراً للصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلاً)

وليس من شك في أن الاسطول الشامي في القرن الرابع الهجري كان يفوق الاسطول الفاطمي في شمالي أفريقية ويزيد عليه في الكفاية والعدد . وعلى الرغم من أن الاسطول الفاطمي غزا جنوبي فرنسا ومدينة جنوة وبيزا ، فإن الاسطول الشامي استطاع هزيمة الاسطول المصري في مشتل القرن الذي نحن بصدد الحديث عنه . فانهزمت ثمانون سفينة فاطمية أمام خمس وعشرين سفينة شامية في سنة ٣٠١ هـ

ولم يقل اهتمام التوكل بالاسطول المصري والبحرية المصرية عن اهتمام أبيه المنتعم بالاسطول الشامي . فللمنتعم فضل تحسين الطاكية التي كانت أهم ثمر تجاري في الشام . وله فضل الاهتمام ببناء طرابلس الشام كما يذكر ذلك ابن خردادبة

وعلى كل حال لا ينسى فضل الفاطميين على الاسطول المصري وعنايتهم به . فلقد واسلوا انشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط وسيروها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وأكثروا من بناء دور لصناعة الاساطيل

وكانت الاساطيل الاسلامية كغيرها من الاساطيل الغربية حينذاك تدير بالشرع والمجاديف ولا يدخل الفولاذ في بنائها . فمن أين لهم الخشب اللازم لهياكل السفن وصواربها

لقد كانت البندقية تعد العرب به ولكن الامبراطور الروماني احنج على دوق البندقية فنوقف البنادق عن بيع الخشب للعرب ، الا الاخشاب التي لا تصلح لبناء السفن وقد أثرت تلك الحركة في الانتاج البحري عند المسلمين ، وزاد الطين بلة ذلك الحريق

المائن الذي وقع في اسطول الفاطميين في زمن العزيز الفاطمي واعترف صانع الروم بأنهم هم الذين أحدثوه

وحدثت أزمة في صناعة الاساطيل ظهر أثرها فيما صنعته الوزير عيسى بن بطورس في مصر من خشب السقائف ودور الحكومة لأعداد أسطول آخر

واقف فطن صلاح الدين الايوبي الى أهمية العابات والمراج في صناعة الاساطيل فرافها رافية دقيقة وعين المراس عليها حتى لا يستعمل الناس خشبها في خاص شربهم . واستنبت نوعاً من شجر المنط قوم العود منه مائة دينار . ولحق أن الاسطول الاسلامي بلغ في عهد صلاح الدين شأناً عظيماً . وهي منزلة كان المسلمون في حاجة ملحة اليها لاستيلاء الصليبيين على اكثر السواحل الشامية . وفي ذلك العصر بلغت السفن حداً عظيمًا من ضخامة الهيكل وارتفاع الجدر

ويذكر المؤرخ الانكليزي جون كارنوك أن قلب الأسد ملك انكلترا لما استولى على قبرص وغادرها الى الشام في مائتي سفينة لاقى في طريقه سفينة ضخمة للمسلمين تحمل القنا وخمسة مائة بحار . وهو عدد لم يشهد الفرنجة مثله في زمانهم . وهذه الرواية تدل على مبالغ ما وصلت اليه صناعة الاساطيل الاسلامية من تقدم

وبعد عصر صلاح الدين قلت العناية بالاسطول الى أن جاء الملك الظاهر في منتصف القرن السابع فأعاد العناية بصناعة السفن . وكان يشرف عليها بنفسه ويرى بنفسه ما يحتاج اليه من ضروب الاصلاح . ولكن سمعة الاساطيل الاسلامية في عصره لم تبلغ ما كانت عليه في عصر التوسع والفتح . وكانت اساليب المسلمين في وقائعهم البحرية كثيرة الشبه بما يحدث الآن في عرض البحار مع ملاحظة الفرق في الصناعة والسرعة والاختراع والتقدم العلمي . فقد عرف العرب وسائل النعمة على العدو وتسلطه بالالوان والشارات والملابس وغيرها . ونرى ابن حنون المصري يفتخر بقبرص في القرن السابع ويرفع على رماكبه الصليبان حتى يظنها المسيحيون من سفنهم فتدخل الحيلة عليهم

وفي الحروب الصليبية مجد قائداً بحرياً عربياً يقود سفينة عليها ٧٠٠ مقاتل ويسميت في القتال حتى اذا لم يبق في النجاح آمن وعلم أنه مأخوذ لا محالة هو ورجاله أحدث في السفينة خرقاً وآزر أن يذهب هو وسفينته ورجاله وسلاحه الى أعماق البه وأغوار البحر على أن يبقوا قريبة في يد الأعداء .